الفصل

3

المعانـــاة

على الرغم من معاناة فرويد من الاتجاه المعادي للسامية، فقد كان مخلصاً لانتمائه الوطني الهنغاري النمساوي عند ابتداء الحرب، وكان قد أزعجه عندما أيد إرنست جونز Ernest Jones، المحلل النفسي الإنكليزي الذي كتب فيما بعد سيرة فرويد، السياسة البريطانية. (أثناء الحرب، كانت بريطانيا وفرنسا وروسيا معادية لألمانيا والاتحاد الهنغاري النمساوي) ومع مرور الزمن أصبح فرويد متعباً من الحرب إذ خلال سنوات الحرب من عام 1914 إلى عام 1918 كانت مجلات التحليل النفسي التي ساعد فرويد على تأسيسها إما متوقفة عن الصدور أو محدودة الانتشار والتداول. كذلك كانت تعقد اجتماعات جمعية ڤيينا للتحليل النفسي، في بدايتها، كل أسبوع وبعد ذلك كل أسبوعين وبعد ذلك أحياناً. التحق

obeikandl.com

أبناء فرويد الثلاثة بالجيش كذلك اضطرت ابنته أنَّا للبقاء لفترة وجيزة في إنكلترا عندما اندلع القتال.

شرع فرويد في التفكير بالأساس النفسي للحرب. وفي كتابته عن الحرب والموت توصل إلى أن بواعث العدوان هي أشد بكثير مما يتوقع الناس. والمسألة هي في وجوب تصعيد أو إعادة توجيه طاقة هذا العدوان. والحرب في رأي فرويد هي نتاج حفنة من القادة المتنفذين ذوي النوايا الشريرة الذين يحرضون مواطنيهم على الحرب إذ لا يمكن للشعب أن يتصور الحرب على حقيقتها.

يفكر أفراد الشعب بأحلام المعارك المجيدة فقط التي لا يتعرض فيها المدنيون للقتل أبداً. شعر فرويد بقوة أن بمقدور الحرب أن تُري آلاف الناس أن البشر في أصلهم ليسوا طيبين ولا عقلاء.

أمسى الناس، أثناء الحرب، شديدوا الاهتمام بالتحليل النفسي والسبب في هذا الاهتمام المفاجئ هو عُصاب الحرب أو «صدمة القصف». إذ أصبح آلاف من الجنود معاقين نفسياً وغير فعالين بعد أن واجهوا الأهوال على أرض المعركة. وعجزت السلطات الطبية عن إيجاد طريقة لعلاج هؤلاء الرجال. في عام 1918 جاء ممثلون عن حكومات ألمانيا وجمهوريتي هنغاريا والنمسا المنفصلتين حديثاً لحضور أول مؤتمر للتحليل النفسي الدولي يعقد بعد الحرب. إلا أن الرغبة في إنشاء مراكز

العلاج النفسي لضحايا عُصاب الحرب لم تدم طويلاً بسبب تعرض هذه الدول إلى ثورات داخلية.

كانت سنوات ما بعد الحرب عسيرة على فرويد. إذ لم يتوافر إلا القليل من الطعام أو الوقود في ڤيينا. واختفى الحليب واللحوم من منزل فرويد وأضحت الأقلام والأوراق نادرة من عام 1918 حتى عام 1921. وذات مرة، سُئِل فرويد إن كان يقبل بمقايضة أوراق بحثه بالبطاطا بدلاً من المال. وفي الأعوام التي تلت الحرب عانت العملة النمساوية من تضخم هائل. بين عامي 1914 و1922 انخفضت قيمة الكرون النمساوي بعامل قدره 20,000، ليهبط من 5 إلى 100,000 كرونر مقابل الدولار.

وأمام هذا الوضع كتب فرويد رسائل تَشكي إلى كل أصدقائه وأقاربه في الدول الأجنبية طالباً منهم الطعام والكساء والسيجار. في ڤيينا بدأ فرويد بقصر ممارسته على المرضى من إنكلترا والولايات المتحدة الذين يستطيعون أن يسددوا له رسوم العلاج بعملة لا تعاني من التضخم. كان الإصغاء إلى اللغة الإنكليزية مدار اليوم متعباً بالنسبة إلى فرويد، إلا أنه استمتع بتحقيق الأمن المالي. حتى إنه أصبح بمقدوره إرسال تبرعات منتظمة إلى لو أندرياس ـ سالومي Lou Andreas-Salomé وهي إحدى زميلاته المفضلات في التحليل النفسي خلال السنوات الأولى من العقد الذي يبدأ بعام 1920. وعندما اكتشف أنها تجري 10 جلسات تحليل في اليوم في عام

1923، وجه لها توبيخاً على إجهادها لنفسها وأرسل لها مزيداً من المال.

عانى سكان ڤيينا من المرض أيضاً، وهاجت الأوبئة وفي عام 1920 توفيت سوفي ابنة فرويد الثانية من الإنفلونزا. انفطر فؤاد فرويد حزناً عليها، وكتب إلى صديقه أوسكار فيستر Oskar Pfister. «تركت سوفي طفلين أحدهما ست سنوات والآخر ثلاثة عشر شهراً وزوجاً لا عزاء له، الذي سوف يدفع الآن ثمن سعادة هذه السنوات السبع. سعادة داخلية بين الزوجين لا خارجية. فالحرب والغزو والإصابة وتضاؤل الممتلكات كل ذلك لم يفقداهما الشجاعة والمرح...

إنني أعمل بأقصى ما أستطيع وأنا شاكر على السلوى. يبدو أن فَقْدَ الولد إصابة نرجسية خطيرة وأما ما يعرف باسم الحداد فالأرجح أنه يأتي لاحقاً فقط».

في وسط هذا الوضع المضطرب، نشر فرويد واحداً من أكثر كتبه غرابة في ما وراء علم النفس. فقد قادته تأملاته، وهو محاط بنتائج وعواقب الحرب من موت ودمار، إلى دافع العنف عند الإنسان. ومع صدور كتاب ما بعد مبدأ اللذة في عام 1920 أضاف فرويد عاملاً آخر إلى النفس أو الجهاز النفسي إضافة إلى الدوافع التي ذكرها سابقاً والكبت ومبدأ الواقع، ولا يفوتنا طبعاً مبدأ اللذة.

لاحظ فرويد أنه يبدو أن هناك واقعاً قسرياً على

التكرار فالأشخاص العصابيون يكررون كوابيسهم والأطفال يمثلون المواقف المرعبة على نحو متكرر. وفي التحليل النفسي يعيد المريض تمثيل معاناة الطفولة من خلال آلية الإنقال. وعلى وجه الإجمال يبدو الناس على أنهم يجدون أنفسهم في نفس الموقف مرة تلو الأخرى. وبناء على هذا النوع من الأدلة توصل فرويد إلى أن دوافع الإنسان محافظة فهي لا تسعى إلى مساعدة الفرد على النمو والتطور بل تحاول الدوافع عند الإنسان أن تعيد إحياء الماضي وأن تعود إلى الحالات السابقة. أصبح فرويد يعتقد الآن أن هناك مجموعتين من الدوافع: دوافع الليبيدو وتدعى إيروس Eros نسبة إلى إله الحب عند الإغريق وغريزة الموت والتي أطلق عليها القارئون لأعمال فرويد حالاً اسم ثاناتوس Thanatos نسبة إلى إله الموت عند الإغريق.

أما غريزة الموت فتمثل نزوع الحياة إلى العودة إلى حالة اللاحياة، وهناك غريزة حفظ الذات، التي كانت تعرف بمبدأ الواقع، وهي جزء من غريزة الموت التي تقاوم الموت لأسباب خارجية. كما أنها تعارض التغيير حتى تموت العضوية من أسباب داخلية بدلاً من أسباب خارجية. كتب فرويد «إن هدف الحياة في مجملها هو الموت». وما كان أكثر جرأة هو تصريح فرويد باحتواء ثاناتوس على دافع العدوان ـ وهو ذات المفهوم الذي أدى إلى طرد أدلر من الجمعية الفرويدية.

أحدث فرويد تغيراً هاماً آخر في نظريته. فحينما ابتدع إيروس وثاناتوس تخلى عن نموذجه النفسي المرتكز على الطاقة. وأصبحت نظرية فرويد عن النفس أقل ميكانيكية ولم تَعد يُنسب إليها القوى البيولوجية الغامضة. أما زملاء فرويد فلم يكونوا سعداء بالمستجدات من أعماله. وكان من الممكن تسمية كتابه (ما بعد مبدأ اللذة). ما بعد التحليل النفسي وفقاً لوجهات نظر بعض المريدين. لم يقدم هذا الكتاب المساعدة على مستوى الممارسة ولم تبدو فيه أي فائدة عيادية. وكان عسيراً أيضاً معرفة ما إن كان فرويد قد اكتشف حقاً غريزة الموت أو مجرد العدوان. تقبَّل كثير من المحللين فكرة الصراع بين إيروس وغرائز العدوان وتخلُّوا عن البقية.

أصبحت نظرية فرويد عن النفس صعبة التناول غير عملية أيضاً. كما كان مفهومه عن الثاناتوس عسيراً على التوافق مع تقسيمه القديم للنفس أو العقل إلى الشعور وما قبل الشعور واللاشعور. إذ لم تكن غريزة الموت كما هو واضح جزءاً من الشعور أو ما قبل الشعور أو لم يكن فرويد قد انتبه إلى هذه الغريزة في مرحلة باكرة. ومع ذلك إن كان كلاً من غريزة الموت وإيروس جزءاً من اللاشعور فلا بد إذاً للاشعور أن يحتوي على دافعين متصارعين. وإن كانت غريزة الموت لاشعورية فإنها عُرضة للكبت ـ لكن بماذا؟

يبدو أن للعقل أقساماً أكثر من تلك التي رغب فرويد

أن يعترف بها. ورأى أن كلمات مثل الشعور واللاشعور قد أضحت مشوشة وأراد أن يستبدلاهما بمصطلحات أحدث وأكثر دقة. أعاد فرويد تصميمه لمصور العقل مشكلاً ما أطلق عليه أتباعه اسم النظرية البنائية Structural Theory.

شرع فرويد بإعادة بناء نظريته مع كل من الأنا Ego والهو Id عام 1923. لقد استنتج ذلك من خبرته مع المقاومة. فقد قاوم كثير من المرضى جهود المحللين النفسيين من غير أن يَعوا ما كانوا يفعلونه.

وبالتالي فإنه لا يمكن للأنا الذي هو صلة الوصل مع الواقع والذي يُصْدِرُ الكبت والمقاومة أن يكون كله شعوري.

آن الأوان الآن بالنسبة لفرويد لكي يقسم الأنا. إذ هناك الأنا الشعوري الذي يسيطر على جهاز الحركة (وهو جزء من الجهاز العصبي الذي يسيطر على الحركة) والحواس، والأنا اللاشعوري الذي يكبت الأفكار المزعجة والأحلام المراقبة.

أما مهمة مراقبة العقل كله فهي من عمل الأنا الأعلى الذي يحاكم ويعاقب.

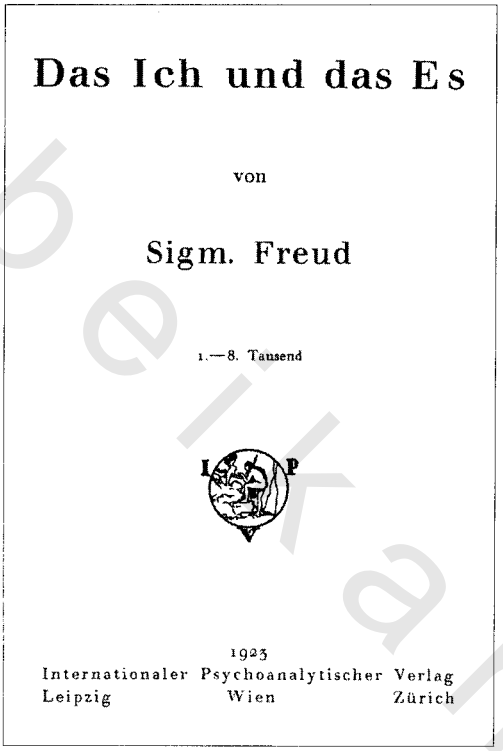
Das Ich und das Es

von

Sigm. Freud

1.—8. Tausend

1923
Internationaler Psychoanalytischer Verlag
Leipzig Wien Zürich

قدّم فرويد نظريته الثورية التي تقول إن العقل مقسّم إلى ثلاثة أقسام منفصلة: الأنا والهو والأنا الأعلى.

ينشأ الأنا الأعلى عندما يحل الطفل عقدة أوديب. يتقمص الطفل شخصية الوالد من الجنس الآخر. ويتبنى مبادئه السلوكية وبخاصة المبادئ التي تناهض غشيان المحارم.

أما الهو، الذي يتخفى في الأسفل، فهو مصدر كل الرغبات والغرائز ويقوم بتزويد اللاشعور بالطاقة. يحتوي الهو على المواد المكبوتة. إلا أنه ليس كل شيء في الهو يعتبر مكبوتاً. يتوسط الأنا بين الهو والأنا الأعلى ويعمل على تدمير شؤون الواقع، وفي الوقت الذي يصرح فيه الهو عن رغباته يحاول الأنا أن يرى إن كان باستطاعته أن يرضي الهو إلا أن اختياراته العملية تواجه قيوداً من قبل الأنا الأعلى. يسعى الأنا في نفس الوقت أن يقنع الهو بقبول الضوابط والحدود الموجودة في الحياة كما يحاول أن يقنع الأنا الأعلى بالاستجابة إلى رغبات الهو. كتب فرويد بعبارات ذات بعد اجتماعي «الهو هو غير أخلاقي تماماً، أما الأنا فيحاول أن يكون أخلاقياً، وأما الأنا الأعلى فهو أخلاقي بشدة وقسوة».

ليس الأنا الأعلى هو الضمير الأخلاقي تماماً. إذ يتشرب التعليمات والأوامر الأبوية المتنازعة من مثل «عليك أن تُشابه أباك» وبما أنه لا يمكن للطفل أن يكون بديلاً عن أبيه فإنه «من الممكن أن لا تشابه أباك». بمقدور الأنا الأعلى أن يحدث مشاعر لاشعورية بالذنب تصبح مشاعر الذنب هذه واضحة فقط في الظروف التي تبدو سعيدة.

كما هو الحال عندما يهنئ المحلل مريضه على التقدم الذي أحرزه في العلاج. ففي بعض الأحيان يصبح المريض بعد ذلك أكثر سوءاً «كرد فعل سلبي على العلاج». على خلاف الكوابيس التي وصفها فرويد في كتاب تفسير الأحلام على أنها أفعال جريئة، فقد رأى رد الفعل هذا على أنه استجابة يائسة. يحتوي لاشعور المريض على مشاعر الذنب التي تتطلب العقاب. يسدي الأنا الأعلى ربما في بعض الأحيان خدمة إلى غريزة الموت.

يعتبر الأنا الأعلى مفهوماً جديداً كلياً لكن تأثيره على التحليل النفسي لا يمكن مقارنته بتأثير مفهوم الأنا المحسن الجديد. ووفقاً لما يراه فرويد عندما يتم انتقاء موضوع الحب (كالوالد) فإنه يتم استبدال ذلك الموضوع عند الأنا بما يمثله باختصار، بمقدور الوالدين أن يستمرا في التأثير على الطفل بما لهما من تمثيل داخل أنا الطفل ومن خلال الأنا الأعلى أيضاً. أما مسألتي التقمص والأنا فسوف تبدوان كبيرتين بالنسبة إلى فرويد وإلى نظرياته عن النحو الأنثوي.

عوضاً عن كبت رغبات الهو ببساطة، فإن الأنا هو أمل الإنسانية الوحيد في تحقيق التوازن بين المطالب المتصارعة للواقع وللهو وللأنا الأعلى. إن هذا الدور الجديد للأنا كان فاتحة لميدان علم نفس الأنا، وهو فرع من نظرية التحليل النفسي التي تدرس كيفية تطوير الأنا

obeikandl.com

لآليات التعامل مع الصراعات بإيجاز سمح علم نفس الأنا إلى فرويد وأتباعه أن يركزوا على الكيفية التي يسلك بها الأنا السليم بدلاً عن التركيز على السلوك العصابي. كذلك فإن علم نفس الأنا هو سبيل لادعاء أفكار ابني فرويد غير المخلصين أدلر ويونغ. إذ جادلا عن فكرة ألا يكون التحليل النفسي مجرد دراسة الأعراض والذاكرة بل دراسة الكيفية التي تشكلت بها الشخصية كلها. لقد منح علم نفس الأنا أتباع فرويد طريقة للاستيلاء على أفكار يونغ وأدلر من غير خيانة فرويد.

عندما صاغ فرويد المصطلحات النفسية استخدم كلمات ألمانية من مثل: das Es, das Ich, and das Überich التي تترجم إلى الهو والأنا والأنا الأعلى. إن كثير من المصطلحات الغريبة والمربكة في علم النفس الفرويدي كانت من ابتكار فرويد الناطقين باللغة الإنكليزية، الذي ترجموا من اللغة الألمانية اليومية الواضحة إلى اللغة اللاتينية id, ego, superego بدلاً من اللغة الإنكليزية.

في تلك الأوقات كانت أغلب المصطلحات الطبية والمفردات الفنية في العلوم الأخرى تترجم إلى اللغة اللاتينية. وكانت اللغة اللاتينية مطلوبة في جميع المدارس الثانوية. إن تحويل كتابات التحليل النفسي من الألمانية إلى اللاتينية جعلتها تبدو أكثر علمية مما لو كانت مكتوبة في الإنكليزية وساعدت على إظهار المحللين النفسيين في الولايات المتحدة بصورة أكثر احتراماً.

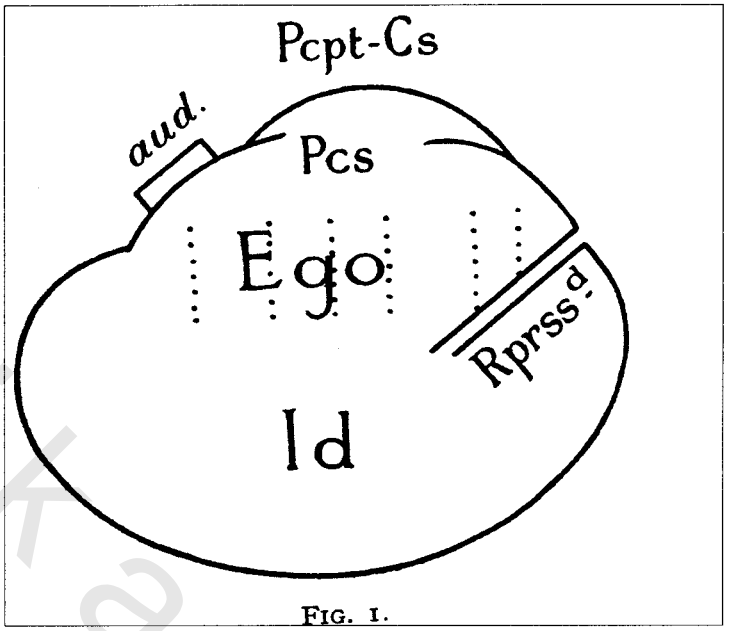

FIG. I.

مصور من أول طبعة إنكليزية لكتاب الأنا والهو يظهر مفهوم فرويد عن المكونات المختلفة للعقل.

وفي ورقتي بحث كتبهما فرويد بين عامي 1923 و1925 باشر فرويد في معاينة موضوع الجنسية الأنثوية مرة أخرى. كان كثير من المحللين وبخاصة هيلين دوتش Helene Deutsch وميلاني كلاين Melanie Klein، وكارن هورني Karen Horney وكاتب سيرة فرويد إرنست جونز يستكشفون النمو الجنسي عند المرأة. إذ من الواضح أن الجنسين ينموان على نحو مختلف، وكان السؤال هو كيف يحدث ذلك؟

قدم فرويد فكرة المرحلة الجديدة في الجنسية البشرية، هي المرحلة القضيبية. وأكّد على أن كلاً من الصبيان والبنات الصغار يعتقدون أن لكل واحد منهم قضيباً. عندما يحل الصبي عقدته الأوديبية يخشى أن يقوم

obeikandl.com

والده بالقضاء على قضيبه. تضمن هذه الرهبة أن يشكل الصبي أنا أعلى قوي، أما البنات، من ناحية أخرى، فقد تعرضن مسبقاً للِحضاء.

استخدم فرويد العوامل الاجتماعية لتفسير التغيرات التي تمس البنات، فقد كتب في بحث عنوانه «حل عقدة أوديب» عام 1924 «يبدو أن هذه التغيرات ناجحة عن التربية وعن الترهيب الذي تتعرض له من العالم الخارجي والذي يهددها بحرمانها من الحب».

بعد مرور عامين عبر فرويد عن آراءه بصراحة فيما كتبه تحت عنوان «بعض النتائج النفسية للاختلاف التشريحي بين الجنسين»: «لا يستطيع المرء أن يقاوم الفكرة القائلة بأن ما هو مقبول أخلاقياً بالنسبة للمرأة هو ليس كذلك [بالنسبة للرجل] إذ أن ما تبديه من شعور بالعدالة هو أقل مما يبديه الرجل، وميلها إلى الخضوع إلى متطلبات الحياة الكبرى هو أيضاً أقل من ميل الرجل، وتنقاد في قراراتها بعواطفها الرقيقة أو العدوانية أكثر من الرجل». زعم فرويد أن عقدة أوديب عند المرأة تنتهي مع رغبتها في إنجاب طفل لأبيها هذه الرغبة التي تبدأ المرأة بالإقلاع عنها تدريجياً. إلا أنه تبقى هناك أسئلة محيرة:

لماذا يتوجب على البنات هجران أمهاتهن بأي شكل من الأشكال؟

ولماذا يتوجب عليهم أن يهمُّوا بمحبة آبائهن؟

وهنا يقدم فرويد واحداً من أكثر مفاهيمه فُحشاً: ألا وهو حسد القضيب إذ عندما ترى البنات أنهن لا يملكن القضبان المدللة التي يملكها إخوانهن يبدأن بالشعور بالدونية، ثم يرفض أمهاتهن اللائي يمكن أن يكونن قد نزعن عن بناتهن قضبانهن أو سمحن لبناتهن بأن يولدن ناقصات. بعد ذلك تصبح البنات متيمات بآبائهن ذوي القضيب. وكما ورد في كتابات فرويد: «في الوقت الذي تم فيه القضاء على عقدة أوديب عند الصبي بواسطة عقدة الخصاء فإن عقدة البنت منشؤها عقدة الخصاء ذاتها».

أما أتباع فرويد وبخاصة إرنست جونز ومجموعة صغيرة من المحللات النفسيات اللاتي تجمعن حوله، لم يكنَّ مقتنعاتٍ تماماً بما ذكره فرويد حول هذا الموضوع. وكما ورد في كتابة هيلين دوتش فيما بعد:

> «يبدو أنه من المحتمل أن يشكل رضى ذو منشأ خارجي أو بالصدفة [وهي ملاحظة البنت افتقادها للقضيب] بالضرورة جزءاً أساسياً في تشكيل شخصية الأنثى».

أما كارن هورني المحللة النفسية الألمانية فقد قرأت ورقة بحث في المؤتمر الدولي للتحليل النفسي في برلين عام 1922 وبينت فيها أنه قد تكون النرجسية الذكرية عند المحللين النفسيين هي المسؤولة عن افتراض عدم رغبة النساء في أن يَكُنَّ إناث، وتابعت هورني لتبين في سلسلة من البحوث أن «الهاجس الأنثوي الأكبر» هو أن تتعرض الأنثى للاغتصاب من قبل والدها وأن تنجب منه طفلاً وليس أن يكون لها قضيب. اعتقدت كل من ميلاني

فرويد مع ابنته أنَّا وطفل مجهول الهوية. كرست أنَّا فرويد حياتها لأبيها ولأعماله كما أصبحت محللة نفسية مشهورة بحق.

كلاين وإرنست جونز أن المرحلة القضيبية عند البنات ليست جزءاً من النمو الطبيعي وإنما هي عرض عُصابي. إذ تشتهي البنات قضيب الأب ويصل بهن الأمر إلى كراهية أمهاتهن لأنهن منافسات لهن لا لأنهن تعرضن للخصي.

لم ينتظر فرويد طويلاً ليخرج من هذه المناظرة، ففي شهر آب من عام 1922 انتحرت ابنة شقيقته كاسيلي غراف Caecilie Graf، إذ كانت حاملاً من غير أن تكون متزوجة وماتت من تناولها لجرعة دوائية زائدة. شكل موتها صدمة إلى فرويد مثلما فعل موت هينيل Heinele ابن ابنته

الراحلة سوني بعد أقل من عام. في شهر شباط من عام 1923 دخل فرويد مرحلة عذاب استمرت معه نهاية حياته. فقد تم تشخيص مرض السرطان عنده.

وبعد تحمل عشرات السنين من تدخين السيجار، تمرد جسم فرويد عليه وظهر على سطح فمه تورم مؤلم فظن أن ذلك هو ورم خبيث. وحينما استشار طبيبه الخاص، ارتكب فرويد خطأً في الطلب من طبيبه أن يساعده على «الاختفاء من هذا العالم بوقار» إن كان سيعاني من غير فائدة. اعتبر طبيب فرويد هذا الطلب بمثابة تهديد بالانتحار. واكتفى بإعلامه بوجوب إزالة الورم والتوقف عن التدخين. وفي الحقيقة كان فرويد يعاني من السرطان، بعد ذلك استشار فرويد اختصاصياً في الأنف وليس جراح فم، كما يتطلب المنطق، وكانت المعالجة غير ناجحة. كما أخفق زملاء فرويد في إخباره الحقيقة. ولم يعلم فرويد عن تشخيصه حتى شهر أيلول، بعد أن قضى إجازة في روما مع ابنته أنّا. خضع فرويد لعملية إزالة الورم السرطاني وتم التلاؤم مع جراحة ترقيعية وهي إضافة صفيحة فكية صناعية بحيث استطاع أن يعاود تناول الطعام والتكلم.

وفي المحصلة، خضع فرويد إلى أكثر من 30 عملية جراحية، علاوة عن العمليات الترقيعية والتجريفية على مدى 16 عاماً. وبالرغم من كل ما حدث له لم يتوقف عن تدخين السيجار.

وفي عام 1897 كان قد كتب إلى فلييس أن جميع أنواع الإدمان هي بدائل عن الاستمناء.

كان فرويد يعلم أنه مدمن على السيجار لكن تحليله لنفسه لم يساعده على الإقلاع عن ذلك. حتى حينما يعرف العقل الواعي أن هناك مشكلة، يستمر اللاشعور في ممارسة تأثيره اللاعقلاني.

ومن حسن الطالع، أن كان لفرويد مصدر دعم قوي خلال جميع محنه وتجاربه فقد قررت ابنته الصغرى أنَّا أن تُكرس حياتها لأبيها. تم إعداد أنَّا كمعلمة ومارست التعليم لبعض الوقت في مدرسة للبنات. وفي عام 1916 عندما صار عمرها 21 سنة، حَضَرَتْ محاضرات فرويد التمهيدية عن التحليل النفسي وقررت أن تصبح محللة نفسية. أخبرت والدها أنها راغبة في الدراسة في كلية الطب لتكون طبيبة، لكنه أقنعها بأن تكون محللة عادية من غير إعداد طبي رسمي. وفي عام 1918 أدخلها في عملية التحليل.

كان فرويد قد حذَّر مريديه من إجراء التحليل النفسي على الأصدقاء والأصحاب المقربين. فكيف يمكن أن يكون محايداً مع ابنته؟ كيف يمكنه أن يساعدها على استقلالها عن الصراعات المكبوتة ذات الصلة بأبويها من خلال عملية الإنقال؟

إن عملية إنقال الليبيدو إليه يعني ببساطة أنها سترجع الليبيدو إلى أبيها مرة أخرى، مما سيعمق الصراع عندها.

بعد الحرب العالمية الأولى، شرع معظم طلاب التحليل النفسي في الخضوع إلى تحليل نفسي تدريبي هدفه فهم أنفسهم ومعرفة كيف يبدو التحليل النفسي من وجهة نظر المريض.

وكان على أنَّا أن تخضع هي أيضاً إلى واحد من هذا التحليل، إن هي أرادت أن تصبح محللة نفسية. وربما كان مقلقاً بالنسبة إلى فرويد أن يرى هواجس ورغبات ابنته اللاشعورية تتكشف أمام محللين آخرين على نحو محرج.

كان تعلق أنَّا فرويد العاطفي بأبيها قوياً، إذ كانت طفلة فرويد الوحيدة التي قررت الخوض في مجال عمل أبيها.

كانت ترى في أحلامها أن أبيها كان ملكاً وكانت هي أميرة وكان الناس يحاولون أن يبعدوها عن أبيها. وحينما أصبح فرويد مريضاً أصبحت هي وليست أمها الممرضة الرئيسة التي تعنى به، وتنام معه في غرفة المشفى وتركب له العضو الصناعي في فكه. ومن جهته لم يشجع فرويد واحداً على الأقل ممن تقدموا في طلب يد أنَّا (وهو إرنست جونز) عندما كانت في عمر 19 عاماً، زاعماً أنها «لا تزال بعيدة عن الإحساس بالرغبة الجنسية» كتب جونز رسالة مؤثرة إلى فرويد في عام 1914 قائلاً، إن أنَّا «سوف تصبح بكل تأكيد امرأة عظيمة فيما بعد، شريطة أن لا يؤثر عليها كبتها الجنسي. فهي بكل تأكيد متعلقة بك إلى حد بعيد».

obeikandl.com

مهما كان تعلق أنَّا المسكينة بأبيها، فقد حققت مراتب عليا في دوائر التحليل النفسي. ففي عام 1922 قدمت أنَّا فرويد إلى جمعية ڤيينا للتحليل النفسي بحثاً علمياً حول هواجس أن يأكلك الآخرين ذات صلة بممارسة الاستمناء، وأصبحت بسرعة عضواً كاملاً في الجمعية. مع مرور الزمن بدأت أنَّا بتمثيل أبيها في المؤتمرات الدولية عندما كان يشعر أنه لا يستطيع السفر. استمر فرويد في قلقه من عدم وجود أصدقاء إناث لأنَّا، وكانت تشعر أنَّا بالقلق مما يختلج في صدر أبيها. إذ أقلق فرويد استمرار ابنته في الاعتماد العاطفي عليه، لكنه لم يعرف سبيلاً لوضع حد لذلك وربما لم يكن يرغب في ذلك. وبما أنه قام بتشجيع أنَّا لكي تصبح محللة، فقد شعر بالاعتزاز في الدفاع عما اختارته لنفسها.

في بواكير العقد الذي يبدأ بعام 1920 أخذ يذيع صيت فرويد بسرعة. وقبل الحرب العالمية الأولى كان معظم المحللين النفسيين قد تدربوا على يد فرويد شخصياً أو أحد أقرانه المقربين. وكان هناك في ذلك الوقت معاهدٌ للتحليل النفسي في نيويورك ولندن. فكيف كان على الجمعية الدولية للتحليل النفسي التأكد من مراعاة مبادئها ومعاييرها؟ كان لهذا السؤال أهمية خاصة في البلدان الناطقة باللغة الإنكليزية. إذ أخذ المحللون النفسيون، الذين كان لهم أسلوبهم الخاص في التحليل ولم يخضعوا للتدريب المحترف يعلقون اللافتات في كل مكان. وكان المتخصصون الأكاديميون والطبيون في الولايات المتحدة

يصدرون تعليقات من مثل ما قاله إم. ماكين كاتل، رئيس الجمعية الأمريكية للتقدم العلمي عن التحليل النفسي أنه «ليست المسألة مسألة علم بمقدار ما هي مسألة ذوق. فالدكتور فرويد هو فنان يعيش في أرض الأحلام بين وحوش منحرفين جنسياً».

وفي مثل هذه الأجواء كتب فرويد «في مسألة التحليل غير المدرسي» عام 1926. وفيه أيد فرويد بقوة التحليل غير المدرسي الذي هو مهنة ابنته. كما كتب فرويد إلى أحد الأصدقاء قائلاً «أريد حماية التحليل من الأطباء». زعم فرويد أنه يفتقد إلى الصلاحية الطبية المناسبة. وتلك الشهادة الطبية ليست فقط غير ضرورية لممارسة التحليل بل إنها تسببت في معاملة الأطباء بطريقة منحازة.

كما أعلن فرويد فيما كتبه في شهر تشرين الأول من عام 1927 قائلاً «لقد كان الأطباء هم الوحيدون من بين المحللين الذين كانت عندهم رغبة زائدة عن اللزوم في الانخراط في بحوث هي أقرب للبحوث العضوية منها للبحوث النفسية».

على أية حال لم يكن فرويد امبراطور التحليل النفسي كما كان في وقت من الأوقات إذ استمرت جمعية نيويورك للتحليل النفسي في اشتراط الحصول على الإجازة في الطب قبل الحصول على التدريب في التحليل النفسي. واستندت في موقفها ذلك على أنه من المرغوب فيه سياسياً ومالياً السماح فقط لمحترفي مهنة الطب أن

يمارسوا التحليل النفسي وأن ينالوا أجوراً مالية على أتعابهم. حتى إن كارولين نيوتن التي مرت على التحليل مع فرويد وترجمت كتابات أوتو رانك إلى اللغة الإنكليزية منعت من الانضمام إلى الجمعية. إن الرفض الأمريكي لتدريب محللين ليسوا أطباء كان له تأثير على استبعاد النساء من هذه المهنة في الولايات المتحدة.

وفي المقابل، كانت الجمعية البريطانية للتحليل النفسي تدرب المحللين العاديين (غير الأطباء)، وفي أعوام العشرينيات من القرن العشرين، لم يكن حوالي 40٪ من محللي إنكلترا أطباء. وفي أماكن أخرى، وقفت الجمعية الهنغارية للتحليل النفسي إلى جانب فرويد، بينما استمرت جمعية ڤيينا في الاختلاف معه.

وقبيل عام 1929، كان إبراهام بريل Abrham Brill رئيس جمعية نيويورك للتحليل النفسي منزعجاً من انحراف الجمعية عن خط فرويد. ووافق بريل، مبتدأً بحذر حركة تحليل نفسي خاصة به على السماح لبعض الأشخاص العاديين بمباشرة التدريب على التحليل النفسي. حتى الأمريكان كان عليهم أن يعترفوا في النهاية بأنه ليس للتحليل النفسي صلة بعلم الأحياء الطبي.